خريدة لبنان

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

(تابع لما قبل)

فاجاب الحطّاب متردّدًا : ربّما يكون . امّا انا بلا مؤاخذة من جنسابك يا سيدي فلا اعرفك . وكيف اعرفك وانت خواجه غني كبير وانا فلّاح مسكين ما طلعت في عمري خارج الضيعة

قال هذا والقى ظهره ليستند الى الحزمة . فكأنهُ اضرَّ بهِ الحرّ والتعب او ظنّ انّ الغريب يسخر بهِ فلم يبالِ بشانهِ ولم يعبأ باقوالهِ . وليست كذلك حالة امثالهِ اذا رأوا في بلدهم غريبًا ولاسيّما اوربيًّا فانّهم يرحّبون بهِ ويكرمون مثواهُ

فساء المسافر إعراضُ الحطّاب فلم يزد ايضاحًا بل عاد فلفّ الماريش على النارجيلة وهمّ بالانصراف قائلًا بكل هدوء : لا تخلو الضيعة من اصدقاء لم يخونوني . فانت يا بطرس

ما كادت تلوح شمس النصرانية في العالم حتّى اصابت بيروت من اشعّتها . وقد جاء في تقاليد قديمة انّ المسيح لهُ المجد دخل بيروت لمّا كان متجولاً لبشارة الانجيل في تخوم صور وصيدا (مرقس ٧ : ٢٦) . ولا غرو ان الرسل اجتازوا بها مرارًا في غضون اسفارهم ونشروا فيها النصرانية لا سيما بطرس الصفا هامة الرسل و بولس رسول الامم

وجاء في كتاب تفاسير القديسين بطرس و بولس (راجع البولندستيين في الجزء ٢٧ ص ٢٧٦) انّ القديس بطرس عند خروجهِ من حبس هيرودس سار الى صور وصيدا ثم الى بيروت ونصب احدَ رفقائهِ عليها اسقفًا . وورد في اعمال القديس كوارتوس انهُ اول اسقف اقيم على بيروت وانهُ كان من عداد التلامذة السبعين يذكرهُ بولس في رسالتهِ الى الرومانيين (ف ١٦ آية ٢٣)

وقد ورد في كتاب سيرة الرُّسل الاثني عشر (كتبهُ هيبوليت التيبي في القرن الثاني عشر) انّ يهوذا الرَّسول استشهد في بيروت وبها دُفن (راجع البولندستيين الجزء ٦٠ ص ٤٤٠) وهكذا ورد في تاريخ متّى بن سليمان . وقيل بل يهوذا احد السبعين تلميذًا

ومن يحقّ لنصارى بيروت ان يفتخروا بهم الشهيد ايانوس وكان درس الفقه في مدارس بيروت . وفيها ايضًا تلقّن العلوم القديس غريغوريوس العجائبي اسقف قيصريّة . ومن ابناء بيروت القديسان حنّا واركاديوس ولهما قصّة غريبة اشبه بقصة القديس اوستاكيوس القائد الروماني . ومنهم ايضًا القديس رومانوس الشمّاس صاحب القصايد التي تتغنى بها الكنيسة اليونانية

منصور لا تُلام لانك كنت صغيرًا في تلك الايام. ولا شكّ ان الطحّان نمر بشاره يعرفني لاول وهلة. فكيف شغله ؟

— خربت مطحنته ونبت موضعها الداب والحور

— والطحّان نمر. ماذا جرى له ؟

— اظنّ انه انتقل مع عائلته الى بيروت والله اعلم بحاله ولربّما مات ايضًا. والآن أنهم يا خواجه انك تتكلّم عن زمن جدّي لكك لا تحصل على جواب الّا من حفّار القبور الساكن في كوخ عند المقبرة فهو يعرف كل شيء. ويعدّ لك على اصابعه كل الحوادث التي جرت من مئة سنة

— لا يخفاني ذلك ولا يبعد ان يوسف روحانا جاوز التسعين

— يوسف روحانا ؟ . . . ما هذا اسم الحفّار. اسمهُ فارس عبود

فتنفّس الغريب الصعداء. وهتف اشكرك اللهمّ لانك ابقيت على احد اترابي

— كأن فارس صاحبك يا خواجه ؟

— صاحبي ؟ لا. فاننا كنا في خصام دائم. ومرّةً كنا نتصارع فزجيتهُ في الساقية الطامية من الامطار فكاد يغرق. ولكن ذلك قديم العهد ولا ريب ان فارسًا يُسرّ بلقاءي. وانا ذاهب اليهِ في الحال

وعندئذٍ اخذ قطعةً من الفضّة واعطاها للدكاني واعدًا. بان يتردّد اليهِ ليدخّن عندهُ بالنارجيلة فاجاب هذا: الحلّ محلّكم يا سيدي والكل تحت امركم. واشار الى احد ولديه ان: احمل خرج الخواجه وروح في خدمته

فشكر الرجلُ قائلًا: ما من داعٍ الى ان تتعبه. وفتح الصبيّ بدرهم واخذ منهُ الخريطة وانحدر في طريق متوعرة شرقيّ الخان وقد خرج الدكاني يشيعهُ مكثرًا من اشارات الاحترام وعبارات الامتنان « شرفتم الله يحفظكم ربنا يطيل عمركم » حتى توارى المسافر عن ابصاره فعاد وهو لا يتمالك من الفرح لما نالهُ من الحلوان

٣

فسار المسافر ينوي خميلةً من الصنوبر كان عهدها في صباهُ يروق لهُ منظرها. فما ادركها حتّى تقبّض واخذ منهُ الحزن. لأنّ عينهُ لم تقرّ الّا على اغراس حديثة اما الاشجار الباسقة التي كان يستظلّ تحتها فوجدها قد عبثت بها ايدي الدهر وتلاعبت بها عواصف

الرياح فكسرتها وقطعت نؤوس الحطّابين جذورها المتأصلة في الارض فاصابها ما اصاب السكّان من الخراب والفناء. وقد قام مكانها شجيرات لم يألف جنسها ولم تفقده خبرًا عن احوال الاهلين

بيد انّهُ كان يسمع تغريد الطيور المشتة فوق الاغصان فوجدها لم تزل تصدح كمألوف عادتها. فتشنّف الآذان باصواتها المطربة. وكذلك كان يعمل في قلبه حفيف الشجر تلاعب النسيم باغصانها وقد علاها الجُدجد وهو يصرصر لحمارّة القيظ وكانت الزهور تبعث اليه بروائحها الذكيّة فتلذّ حاسّة شمّه. ففي كلّ هذه المناظر لم يجد ما غيّرتهُ الأيام سوى اعمال البشر امّا الطبيعة فلم تنفكّ تجري على ما وضعتها لها الحكمة الازلية من النواميس

فشى في الخميلة حينًا يلوح على محيّاه ما يزدحم في قلبه من العواطف فطورًا يغلبهُ الفرح لوصوله الى مسقط رأسه وتارةً الكدر لوجوده نفسهُ غريبًا في وطنه. ويبدو في حركاته ما يتنازعهُ من عوامل الخوف والرجاء. فحينًا يخشى ان يدوي في اذنه الجواب على كل سؤال عن الاحباب « مات . ماتت » فيقدّم رجلًا ويؤخّر اخرى . وحينًا يتعش الامل فؤادهُ فيرجو ان تكون سهام الدهر اخطأت تلك التي وجّه اليها افكارهُ وعواطفهُ بيد انّهُ لا يشكُّ انّها لو بقيت في قيد الحياة لا تزال بعدُ ثابتة على عهده فيمكنهُ الاستمتاع بلقياها فينسى بتريها ما تجشّمهُ من الأخطار وقاساهُ من الاهوال فيزيد هذا الفكر في نشاطه وسرعة مشيه

وما كاد يخرج من الخميلة حتّى لاح لهُ مشهد بديع فرأى رياضًا اريضةً اكتست بحلّة خضراء وشاها بنان الربيع تنساب في ارجائها جداول المياه كأنها افاعٍ تتململ او دموع تتسلسل او لجين يسيل او صفحة سيف صقيل . ومنها ما يجري في قنيّ واسعة ثمّ يهوي من عَلُ فيدير المطاحن ويسمع لها دويٌّ وجعجعة تطنّ لها الآذان. فسار قليلًا واذا ببيوت ابي القُرَيّة برزت للعيان وهي مبنيّة من الحجر المحوت الاصمّ منها يضاء السطوح ومنها ما علاها القرميد الاحمر . وقد امتازت بين هذه المساكن كنيسة الضيعة مكللة بقبّة جرس يزينها صليب ابيض يلمع كالنجم الهادي

هي القرية . هو الوطن . فما كادت شفتاه تنطق بذلك حتى همت على خدّيه دموع الفرح وسقطت من يده الخريطة فمدّ ذراعيه كأنهُ يحاول الطيران وفي قلبه من العواطف ما يعجز عن وصفها القلم . فانهُ جاب البلاد وطاف عواصم الممالك الاوربية وتفقّد مصانعها ومعالمها

ولكنهُ لم يداخلهُ قطّ يوماً من عجائبها ما داخلهُ لدى نظرهِ لمستقط رأسهِ بعد طول الفراق ومرّ البعاد

وكانت الشمس ساعتئذٍ في كبد السماء. فقُرع جرس الكنيسة ايذاناً بصلاة الظهر. فخرّ الرجل جاثياً على ركبتيهِ ولم يمنعهُ مرّ الشمس من كشف قبعتهِ واحناء رأسهِ خاشعاً فصلى صلاة حارّةً ثمّ وجّه الحافلهُ نحو السماء. فارسلت عينهُ الى ابي المواهب عبارة الشكر الجزيل خارجة من صميم الفؤاد. وبعد ذلك اخذ خريطته واسرع في السير وعينهُ شاخصة الى قبة الجرس ولسان حاله يقول:

سقياكِ يا كنيسة الوطن فانكِ انتِ لم تقبليلي ولم تغيّركِ الاعوام ففيكِ نلتُ نعمة العماد وما بين جدرانكِ فزت بنعيم المناولة الاولى فطالما قرّت بكِ عيني وطابت نفسي بما فيكِ

لقد أتاح لي السعد ان اعود فاراكِ واراى على مذبحكِ تمثال البتول في حلتها السماوية وتاجها الفضي. واشاهد ايليا النبي وفي يدهِ الحسام وأرى جرجس يطعن التنين المريع وكم حلمت بهِ فهالني رؤيا التنين في منامي. اعود فاسمع الاناشيد الشجية وطالما انشتني نغماتها

قال هذا وادّاهُ السير الى جسر فوق ساقية فانبسط قلبهُ ولاحت انوار نفسهِ على وجههِ فتأمّل حبوراً وهتف: الى هذا المقام شيّعتني أنيسة. هنا ودّعتها وأودعتها فؤادي. وفي ذلك الزمن كانت الرياض زاهرة كما هي الآن والطيور تغرّد كانها تهلّلنا بالاماني

فامسك عن الكلام وعبر الجسر وهو يتنهد ويقول بصوتٍ خافت: لسري ان تلك الزهور شهود الوداع قد ذبلت وفنيت وتلك الطيور قد ماتت وهاك صغارُ صغارِها تنعش الآن همّة الشيخ الفاني وقد كادت تفنى ايام الهناء. وانيسة ما حالها؟ ما حلّ بها يا ترى أو هي في قيد الحياة؟ هل بقيت على العهد ثابتة؟ ما ادراني انها لم تتأهل ورزقها الله اولاداً شُغلتْ بهم عن كل شاغل؟ بعداً عن العين فسلاكم القلب. فاهل الوطن لا يذكرون المنكود الحظ الذي ساقهُ سوء طالعه فابعدهُ عن الديار. قال هذا وبدا على ثغره تبسّم الهزء والتهكم. لكنهُ ما لبث ان زجر هذه الافكار فقال:

— ويحكَ ايها القلب الضعيف ثارت فيك الغيرة كانك لم تزل في ربيع الحياة. مضى زمن الصبا فدع الاوهام ... ما هي حقوق مثلك فجئتَ تطالب بها. أوَ كان على الاحياء ان تنتظر بصبر عودة الغريب من عالم الاموات ... ولكن أتراها لا تعرفني أو لا تذكر قديم العهد بيننا ... الهي ان يكن لي بعض المقام في زوايا قلبها فلا اندم على رجوعي

من بلادٍ سحيقـة ومعاناتي اهوال الاسفار واترك ناعمَ البال وهدة قبري بين اهلي واخواني . . .

وفيما هو على تلك الحال تتناوشهُ الافكار المحزنة دخل القرية فحاول ان يتعرَّف بالبيوت الجديدة . فساءهُ منظر القرميد وشكلهُ الهرمي فوق المنازل وكأنهُ اعتبر تشييـد البنايات على نسق اوربي إجحافاً بحق لبنان ومجدهِ وكاد يخامرهُ شكٌّ في انهُ ضلَّ طريقهُ ودخل غير قريتهِ . على انهُ ابصر بيتاً صغيراً عرفهُ فهرول اليه ورجلهُ دون تردّد . فتراءى لهُ في داخله امرأة وشيخ احنتْ ظهرهُ الايام وهو ساكن كالصنم وجههُ مائل الى الارض وراسهُ مسند الى عصاً توكَّأ عليها بيد مرتجفة . فما وقعت عينهُ على الشيخ الّا عرفهُ فدنا منهُ وامسك بيدهِ وصاح بصوت الفرح : تبارك الله الذي ابقاك يا ابا ناصيف . فانت بقيّة فاضلة من الزمن الماضي أفلم تعرفني . الَا تذكر ذاك الصبي الغرّ الذي كان يطفر من فوق السياج وياكل مشمشك قبل نضجه ؟

قال الشيخ : « ست وتسعين سنة » . غمغم هذا ولم يتحرَّك

— صدقتَ اني اعلم انك طاعن في السن . . انما ناشدتك الله يا ابا ناصيف إن تخبرني عن انيسة ابنة الصباغ هل هي في قيد الحياة ؟

فكرّر الشيخ تجمجماً : « ست وتسعين سنة »

وكانت المرأة قد ثابت الى نفسها من دهشة عرَتها لدخول هذا الموسر الغريب الى بيتها فقالت لهُ : انهُ اعمى واطرش يا خواجه لا تتعب نفسك فلا يسمعك

— اعمى واطرش ؟ يا لله من صروف الزمان ما اكثر نكباتها في عشرين عاماً ؟ فكأني امشي بين اطلال عصرٍ باليـة

قالت المرأة : سمعتك تستعلم عن انيسة ابنة الصباغ يا سيدي فصاغنا لهُ خمس بنات ولكن لا واحدة منهنَّ اسمها انيسة فالكبرى اسمها مريم اقترن بها معلم المدرسة والثانيـة راحيل والثالثة جميلة . . .

فصاح المسافر بفروغ صبر لا اسألكِ عن هؤلاء بل عن عائلة ايوب البحمدوني

— قالت المرأة : هؤلاء ماتوا كلهم من زمان (ستأتي البقية)